الفصل السابع

إمارة قبيلة ربيعة

في مملكة البجة ومملكة النوبة

لقبيلة ربيعة بن نزار العدنانية دور هام في تاريخ كل من الجزيرة العربية ومصر والسودان . وقد كانت ربيعة قبل الاسلام تسكن مع بعض القبائل القحطانية ومنها جهينة وبلي جنوبي نجد . ولكن حدثت خلافات كما مر بنا بين ربيعة وجاراتها من القبائل الأخرى التي تعيش معها وهي

قبائل قضاعة ومنها بلي وجهينة وغيرهما . وقد كان موطن جميع هؤلاء بين الشحر ونجد .

واشتركت ربيعة في كثير من الجبهات حين أقدم المسلمون على الفتح ، وذهبت جموع كثيرة منهم إلي فارس والى الجزيرة ، كما ذهبت جماعات أخرى إلي مصر للإسهام في حروب الفتوح . وبسبب هذه النشاطات فقد انقسمت ربيعة وقطنت مناطق مختلفة من الدولة الإسلامية .

وفي سنة ٢٣٨هـ ٨٥٢م [1] بدأت هجرة ربيعة من اليمامة بنجد ونزلت في صحراء البجة وجنوبي مصر . ولا يعرف عما إذا كانت تلك الهجرة قد تمت عن طريق عبور البحر الأحمر من جهات ينبع إلى ميناء عيذاب ، أم عن طريق سيناء ثم جنوبا حتى ريف مصر ، ثم صحراء البجة ثم أرض العلاقي حيث الذهب . وهناك دليل قوي على أن جماعات من هذه القبيلة على الأقل قد هاجرت عن طريق عبور البحر الأحمر وهم أبناء يونس كما سنرى . وكان العرب قد عرفوا طريق عبور البحر الأحمر ، فقد عبر ذلك البحر عبد الله بن سعد بن أبي السرح سنة ٣١هـ إما من ينبع أو جده إلى عيذاب عندما ذهب في خلافة سيدنا عثمان بن عفان (ض) لتولي إمارة مصر . ولما كانت ينبع أقرب إلى المدينة من جدة ، ولأن الخليفة عثمان (ض) كان يعيش في المدينة المنورة ، فإن الأرجح أن يكون ابن أبي السرح قد ركب البحر من ينبع وأرسى سفنه في عيذاب .

ويبدو أن هجرة ربيعة إلى وادي العلاقي بدأت في ٢٣٨هـ ولكن تكاثر القبيلة في تلك المنطقة أخذ عدة سنوات وهذا ما حدا ببعض المؤرخين لأن يقولوا بأن هجرة ربيعة كانت في سنة (٢٤١هـ / ٨٥٥م) . ولم تكن

---

(١)

هجرة ربيعة هذه بسبب ثورات هناك أراد أن يقمعها الولاة ، بل كانت سعيا وراء الرزق . ومنذ أن عبر ابن أبي السرح من الجزيرة العربية إلى عيذاب أصبحت الملاحة بين جدة وعيذاب ، وينبع وعيذاب وغيرهما طرقا معروفة مطروقة دأبت القبائل بعد ذلك على أن تسلكها عبر هذه الموانئ .

أما البجة الذين هاجرت إلي ديارهم قبيلة ربيعة للاستيطان في أراضيهم ، فقد كانوا قوما اختلف المؤرخون في أصلهم ، فمنهم من قال بأنهم عرب من العرب البائدة ، وأنهم من الثموديين الذين عبروا البحر الأحمر وسكنوا في شمال شرقي السودان ، ومنهم من قال بأنهم والفراعنة جنس واحد ، ولكنهم استوطنوا البوادي ، ومنهم من قال بأنهم حاميون . ومهما يكن من قول فإن أمة البجة كانت تسكن منذ أقدم العصور في شمال شرقي السودان بين عيذاب شمالا إلي مصوع جنوبا[1] . وقد عاصرت هذه القبائل الفراعنة والآشوريين والفرس والبطالسة والرومان والعرب . وكانت لهم صراعات وحروب مع كل هذه الأمم في سبيل الاحتفاظ باستقلالها وبأراضيها ، ولم تستسلم خلال هذه القرون لأي من هذه الأمم .

وكانت مملكة البجة تنقسم إلى خمس ممالك فرعية ، ولكنها تنضوي جميعها تحت مملكة كبرى واحدة . وقد دأبت هذه المملكة ورجالها على الإغارة على صعيد مصر في غضون حكم تلك الأمم التي تتابعت على حكم مصر . ولم تتوقف غاراتها مطلقا رغم المعاهدات التي كان يعقدها ملوكها مع حكام مصر سواء أكانوا من الفراعنة أو اليونان أو الرومان ممن بقوا في حكم مصر مدة طويلة . ولما فتح المسلمون مصر سنة ٢٠هـ / ٦٤٢م لم يختلف موقف البجة من المسلمين عما كان عليه من قبل .

---

[1] سيجيء الحديث عن البجة بتفصيل أكثر .

وكان عبد الله بن سعد بن أبي السرح قد شاهد بعضهم في حروبه الأولى مع النوبة سنة ٢١هـ ، وسأل عنهم ، فأخبر بحالة أوطانهم المقفرة ، وبقلة سلبهم ، فهان عليه أمرهم ولم يتخذ أي قرار بشأنهم . ولذلك فانه لم يكن هناك صلح أو معاهدة أو اتفاق أو هدنة بينهم وبين المسلمين على غرار اتفاقية البقط بين المسلمين والنوبة .

وبالرغم من أن ابن أبي السرح لم يعقد معهم أي عهد إلا أن بعض هؤلاء البجة أقبل على الدين الإسلامي واعتنقه ، وفي ذلك يقول ابن حوقل بأنه في ولاية عبد الله بن أبي السرح عندما عبر إلى النوبة من الحجاز في سنة ٣١هـ .٦٥ م وفتح أسوان (قهر جميع من كان بالصعيد وبها فراعنة البجة وأسلم البجة إسلام تكليف ، وضبطوا بعض شرائع الإسلام ، وظاهروا بالشهادتين ، ودانوا ببعض الفرائض . [1])ويضيف مؤرخ البجة محمد صالح ضرار بأن البجة الذين كانوا يقيمون بجوار المسلمين في صعيد مصر اعتنقوا الدين الإسلامي وقبلوا بشرائعه .

وقد ذكر المقريزي [2] بأن البجة كانت تعبد الأصنام ثم أسلموا في إمارة عبد الله بن سعد بن أبي السرح . ولكن لم يذكر الكيفية التي تم بها ذلك . ويبدو أن تجار المسلمين الذين اتصلوا بالبجة في عيذاب قد أثروا على أهل الحضر منهم سواء أولئك الذين كانوا في عيذاب أم في أسوان ، ومن خلال تلك الصلات اعتنق هؤلاء الدين الإسلامي واتبعوا فرائضه . ولعل لعبادتهم للأصنام علاقة بالأصنام التى كان يعبدها العرب قبل الإسلام ، ولعلها نزحت إليهم بنزوح القبائل العربية البائدة أوصلتها إليهم قبيلة بلى أولى

---

[1] ابن حوقل ص٥٥

[2] الخطط ص ١٩٧ . وكانت أمارة عبد الله على مصر في سنة ٣١هـ .

القبائل العربية التى هاجرت إليهم ، وسادت عليهم وأصبح زعماؤها رؤساء البجة وملوكهم وعرفوا بالحدارب .

ولكن بالرغم من ذلك الهدوء النسبى على الحدود البجاوية الإسلامية فى عهود المسلمين الأولى بمصر ما لبث هؤلاء القوم أن أعادوا سياستهم الهجومية السابقة فأخذوا فى الإغارة على صعيد مصر واقلقوا الأمن فيه ، وكثرت أذيتهم للمسلمين المقيمين بريف مصر ، وزادت هذه الإغارات فى أواخر القرن الهجرى الأول . فلما رأى الخليفة الأموي آنذاك هشام بن عبد الملك [1] ما كان يقوم به البجة من غارات كلف عبيد الله بن الحبحاب السلولي بالتصدي لهم ومهاجمتهم فى عقر دارهم . وقد قام عبيد الله بالفعل بالتصدي لهم ولاعتداءاتهم وهزمهم حتى طلبوا الصلح ، فعقد معهم معاهدة أمان ، وحسن جوار على أن يدفعوا للدولة الإسلامية ثلاثمائة من الإبل فى كل عام حين ينزلون ريف مصر محتازين غير مقيمين. واتفق معهم فى هذه المعاهدة على ألا يقتلوا مسلما أو ذميا . فإن فعلوا ذلك فلا عهد لهم مع المسلمين. وكان عليهم أيضا ألا يؤووا الا بقين من عبيد المسلمين الذين قد يفرون إلي بوادى البجة . واتفق معهم أيضا على أن يعين ملك البجة نائبا له يقيم فى صعيد مصر كرهينه لضمان سريان شروط هذه المعاهدة .وقد أصبحت هذه المعاهدة سارية المفعول فى سنة ١٠٧ هـ الموافق ٧٢٥ م .

ومن شروط هذه المعاهدة يظهر جليا اهتمام الدولة الإسلامية بتأمين طرق المواصلات بين أسوان على النيل وبين جدة فى الحجاز بعدأن عرف طريق عبور البحر الأحمر من ينبع وجدة إلى عيذاب كما فعل عبد الله أبن سعد بن أبى السرح سنة ٣١ هـ .

---

[1] عبد المجيد عابدين المقريزى البيان والاعراب ص ٦٦

كذلك كان البجة يرون أهمية اقتصادية فى التعامل مع العرب المسلمين سواء أكانوا فى عيذاب أم فى أسوان. وكان من بين ما يبيعونه لهم الجمال كما كانوا يحملونهم فى ذلك الطريق الطويل بين عيذاب وأسوان .

لم يبد الأمويون اهتماما كبيرا بمد فتوحاتهم نحو الأراضي السودانية وربما كان ذلك بسبب انشغالهم بالفتوحات فى الأمصار الأخرى التى كانت أكثر أهمية وغنى عن ممالك البجة والنوبة وكانت هناك حروب بين المسلمين وبين النوبة في سنة ٢١ هـ هجرية ثم فى سنة ٣١ هـ وذلك بسبب منع التحالف العسكري بين الروم والنوبة المسيحية . وكان سيدنا عمر بن الخطاب (ض) يخشي أن توضع المخالفة بين الروم والنوبة موضع التنفيذ ولذلك فقد أمر عبد ا لله بن سعد بن ابى السرح بغزو النوبة فى واقعة رماة الحدق ثم بعدها حتى استطاع أن يجعلهم يوافقون على دفع البقط الذى هو نوع من الجزية عليهم إذ كانوا يدينون بالمسيحية ولم يعتنقوا الإسلام بعد .

اما معاهدة عبيد ا لله بن الحبحاب مع البجة فربما كانت هى المعاهدة الوحيدة التى التزم بها البجة لفترة طويلة لأنهم لأكثر من قرن لم يخرقوها أو يغيروا على صعيد مصر أو ينتهكوا بنودها وقد بدأت من سنة ١٠٧ هـ /٧٢٥ م .

ولكن فى خلافة المأمون بن الرشيد سنة ٢١٦ هـ ٧٣١ م بدأ النزاع يدب بين الدولة العباسية ومملكة البجة (كما كان هناك خلاف مماثل مع مملكة النوبة) وشعر البجة بإجحاف المعاهدة التى عقدت مع عبيد ا لله بن الجحاب إذ كان على البجة أن يدفعوا الجزية للعباسيين . ولم يتقبل البجة هذه الشروط ، وربما كان ذلك بسبب استعادتهم لقوتهم بعد فترة الهدوء الطويلة ، وربما حاقت ببلادهم المكاره والقحط وربما كانت بسبب الكرامة

الوطنية . ومن بين أسباب خرق المعاهدة أنه كان على كل بجاوي أن يدفع في كل شاة يأخذها أربعة دراهم وفي البقرة عشرة (١)[1] . كذلك نجد أن المسلمين أخذوا يطرقون بلاد البجة في كل مكان سواء بغرض التجارة أو الهداية إلي طريق الحق والصواب ، ولكن البجاوي كان يأنف أن تؤخذ أراضيه أو ما فيها من ذهب وفضة وزمرد وجوهر رغم أنه قد لا ينتفع بها في حياته اليومية ، فهو لا يعرف سوى شظف العيش .

وكان نائب ملك البجة المقيم في صعيد مصر من الحدارب ، وهؤلاء هم بيت المملكة كما أنهم شوكة القوم كما وصفهم المسعودي ووجوههم المشهورون بالشجاعة والشهامة (١) .

لما رأى المأمون ثورة البجة على حكمه ، وكثرة شكوى المسلمين من أذاهم ، أرسل إليهم عبد الله ابن الجهم . فكانت له معهم وقائع ، ثم وادعهم وكتب بينه وبين ملكهم كَنُّون بن عبد العزيز معاهدة هذا نصها .[1]" هذا كتاب كتبه عبد الله بن الجهم مولى أمير المؤمنين صاحب جيش الغزاة عامل الأمير أبي إسحاق ابن أمير المؤمنين الرشيد أبقاه الله في شهر ربيع الأول سنة ست عشر ومائتين لكنون بن عبد العزيز عظيم البجة بأسوان أنك سألتني ، وطلبت إلى أن أؤمنك وأهل بلدك من البجة واعقد لك ولهم أمانا عليّ وعلى جميع المسلمين ، فأجبتك إلى أن عقدت لك علي وعلى جميع المسلمين أمانا ما استقمت واستقاموا على ما أعطيتني وشرطت لي في كتابي هذا . وذلك أن

---

[1] يقول المقريزى فى ص ٢٩٥ بأن البجة كانت تعبد الاصنام ثم أسلموا فى إمارة عبد الله بن سعد بن أبى السرح فلوصح هذا لما كان هناك وجه فى ان يدفعوا جزية . اما النوبة فقد كانوا مسيحين وربما عرف ملوك البجة ذلك وعليه فقد كانوا يحتجون عليه بالاغارة على صعيد مصر المسلم .

[1] محمد صالح ضرار تاريخ السودان البحر الاحمر بيروت دار مكتبة الحياة ص (٤٥)

يكون سهل بلدك وجبلها من منتهى حد أسوان من أرض مصر ، إلى حد ما بين دهلك وباضع ، ملكا للمأمون عبد الله بن هارون أمير المؤمنين أعزه الله تعالى ، وأنت وجميع أهل بلدك عبيد لأمير المؤمنين ، إلا أنه يقرك فى بلدك ملكا على ما أنت عليه فى البجة ، وعلى أن تؤدى إليه الخراج فى كل عام على ما كان عليه سلف البجة . وذلك مائة من الإبل أو ثلاثمائة دينار وازنة داخلة فى بيت المال ، و الخيار فى ذلك لأمير المؤمنين ولولاته . وليس لك أن تخرم شيئا عليك من الخراج . وعلى أن كل أحد منكم إن ذكر محمدا رسول صلى الله عليه وسلم وكتاب الله أو دينه بما لا ينبغى أن يذكره به ، أو قتل أحدا من المسلمين حرا أو عبدا فقد برئت منه الذمة ، ذمة الله وذمه رسوله صلى الله عليه وسلم وذمة أمير المؤمنين أعزه الله ، وذمة جماعة المسلمين وحل دمه كما يحل دم أهل الحرب وذراريهم . وعلى أن أحدا منكم إن أعان المحاربين على أهل الإسلام بمال ، أو دله على عورة من عورات المسلمين ، أو اثر لعزتهم ، فقد نقض ذمة عهده وحل دمه . وعلى أن أحدا منكم إن قتل أحدا من المسلمين عمدا أو خطأ ، حرا أو عبدا من أهل ذمة المسلمين ، أو أصاب لأحد من المسلمين ، أو أهل ذمتهم مالا ببلاد البجة أو فى بلاد الإسلام ، أو ببلاد النوبة ، أو فى شىء من البلدان برا أو بحرا فعليه فى قتل المسلم عشر ديات ، وفى قتل العبد المسلم عشر قيم ، وفى قتل الذمي عشر ديات من دياتهم ، وفى كل مال أصبتموه للمسلمين وأهل الذمة عشرة أضعاف . وإذا دخل أحد من المسلمين ببلاد البجة تاجرا أو مقيما أو مجتازا ، أو حاجا ، فهو آمن فيكم كأحدكم حتى يخرج من بلادكم . ولا تؤووا أحدا من آبقي المسلمين ، فإن أتاكم آت فعليكم أن تردوه إلى المسلمين . وعلى أن تردوا أموال المسلمين إذا صارت فى بلادكم

بلا مؤونة تلزم فى ذلك . وعلى أنكم إن نزلتم ريف مصر لتجارة ، أو مجتازين لا تظهروا سلاحا ولا تدخلوا المدائن والقرى بحال ، ولا تمنعوا أحدا من المسلمين الدخول فى بلادكم والتجارة فيها برا وبحر ، ولا تخيفوا السبيل ، ولا تقطعوا الطريق على أحد من المسلمين ولا أهل الذمة ، ولا تسرقوا للمسلم ولا للذمي مالا ، وعليكم ألا تهدموا شيئا من المساجد التى ابتناها المسلمون (بصيحة وهجر) وسائر بلادكم طولا وعرضا ، فإن فعلتم ذلك فلا عهد لكم ولا ذمة. وعلى أن كنون بن عبد العزيز يقيم بريف مصر وكيلا فى المسلمين بما شرط لهم من دفع الخراج ، رد ما أصابه البجة للمسلمين من دم أو مال .وعلى أن أحدا من البجة لا يعترض حد القصر إلى قرية يقال لها قبان من بلد النوبة حدا لا عمدة .

عقد عبد ا لله بن الجهم مولى أمير المؤمنين لكنون بن عبد العزيز كبير البجة الأمان على ما سمينا وشرطنا فى كتابنا هذا ، وعلى أن يوافى به أمير المؤمنين ، فإن زاغ كنون أو عاث فلا عهد له ولا ذمة . وعلى كنون أن يدخل عمال أمير المؤمنين بلاد البجة لقبض صدقات من أسلم من البجة . وعلى كنون الوفاء بما شرط لعبد ا لله بن الجهم ، وأخذ بذلك عهد ا لله عليه بأعظم ما أخذ على خلقه من الوفاء والميثاق. ولكنون بن عبد العزيز ولجميع البجة عهد ا لله وميثاقه ، وذمة أمير المؤمنين ، وذمة أبى إسحاق بن أمير المؤمنين ، وذمة عبد ا لله بن الجهم ، وذمة المسلمين بالوفاء بما أعطاه عبد ا لله أبن الجهم ما وفّى كنون بن عبد العزيز بجميع ما شرط عليه . فإن غير كنون أو بدل أحد من البجة فذمة ا لله جل اسمه وذمة أمير المؤمنين وذمة الأمير أبى إسحاق بن أمير المؤمنين الرشيد وذمة عبد ا لله بن الجهم وذمة المسلمين بريئة منهم .

وترجم جميع ما فى هذا الكتاب حرفا حرفا زكريا بن صالح المخزومى من أهل جدة ، وعبد الله بن إسماعيل القرشى ، ثم نسق جماعة من شهود أسوان .

ويلاحظ أن زكريا المخزومي وعبد الله القرشى كانا عالمين بلغة البجة ، ولا شك فى أنهما كانا هناك فترة طويلة كافيةلأن يتعلما هذه اللغة ويترجما إليها . انهما لا بد وأن كانا على صلة وثيقة بملك البجة وإلا لسعى إلى قتلهما خوفا من أن يكونا عيونا للمسلمين ليكشفوا عوراتهم كما حدث من قبل لإبراهيم القفطى .

ويجدر بنا أن نذكر أن كلا من ابن حوقل والمقريزى قد ذكر أن البجة قد اسلموا إسلام تكليف وانهم ضبطوا بعض الشرائع .كما يلاحظ أن ملك البجة الذى جابه قوات ابن الجهم كان يدعى كنون بن عبد العزيز مما يظهر أن والده كان مسلما ، وربما كان هو نفسه مسلما إذ لا يمكن أن يقبل المسلم أن يعتنق ابنه بدين غير الإسلام ، ولذلك فالأرجح أن كنون كان مسلما وان اسمه هذا كان بجاويا ، وربما كان لقبا له باللغة التبداوية أي البجاوية ، ولكنه بحكم وجوده بين أبناء جلدته أضحى هو الاسم السائد والذي تغلب على اسمه العربى كما حدث لاسم احمد باركوين أحد ملوك البجة المسلمين . وباركوين تعنى الشخص الذي لا يعرف الخوف . وقد تغلب هذا اللقب على الاسم العربى وأصبح معروفا به بين أبناء جنسه (١) . وكان المأمون قد بعث مخلد بن يزيد الشيبانى سنة ٢٠٧ هـ إلى مصر فى جيش من ربيعة (٢) وذلك لقمع التمرد الذى قاده عبيد الله بن السري ، ولما كانت القبائل العربية التى ترسل مددا للجنود الإسلامية بمصر لا تعود مرة أخرى إلى ديارها فى أغلب الأحيان ، فإنه من المتوقع أن يكون كثير من

أفراد هذا الجيش الربعي[1] قد بقى فى مصر وربما أرسل بعض أبناء رجاله فيما بعد لمحاربة النوبة والبجة في ما وراء صعيد مصر وفقا لما تتطلبه الحاجة الأمنية في تلك البقاع التي كثيرا ما كان يغير أهاليها على الدولة الإسلامية في مصر .

وكان الجيش الذي أرسله المأمون مع عبد الله بن الجهم لمحاربة البجة سنة (٨١٣م) فيه خليط من القبائل العربية من قيسية ويمنية ، ومن الأرجح أنه اشتمل على بعض من رجال ربيعة الذين أرسلوا مع مخلد . وقد تم النصر لابن الجهم على البجة بعد أن أوغل بعض الشئ في فيافيهم وأراضيهم الشمالية ، وعند عقد الصلح بعد هزيمة البجة استطاع العرب بمقتضاه أن يتاجروا في أراضي البجة وهم آمنون ، وأن يجولوا في تلك البلاد دون أن يعترضهم أحد . بيد أن هذه المعاهدة لم تشر إلى العمل في تعدين الذهب في وادي العلاقي ، وهو الشيء الذي لاحظه الجنود العرب ومن بينهم ربيعة إذ شاهدوا آثار العمل في الوادي بواسطة من سبقهم من أمم مثل الروم وغيرهم .

وقد كانت خلافة المأمون من الفترات الزاهرة اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا وحربيا وفكريا في الدولة العباسية . وكثرت أموال الدولة وتجارتها ، وازدهرت الحياة فيها ، وتنعم السكان بما يرد إليهم من كل مكان فيها . ولذلك فقد كان معدن الذهب ذا أهمية ليس للأفراد فحسب ليتاجروا فيه ، ولكن كريع للدولة ذاتها إذ كانت الدولة تأخذ خمس ما ينتج من محصول الذهب من العاملين في المناجم . فلما استولى المأمون اسميا على أراضي مملكة البجة من مصوع إلى عيذاب ، وجعل كنون من ولاته ، وهو المسئول عن

---

[1] (١) محمد صالح ضرار تاريخ شرق السودان الهدندوة

(٢ ٩ المقريزى الخطط ص ١٩٧

أراضي البجة ، فقد أصبحت تلك الأراضي مركزا يذهب إليه تجار المسلمين تأكيدا لهذا الحق الذي اكتسبوه من معاهدة عبيد ا لله بن الحبحاب مع البجة حوالي سنة ١٠٧هـ ، وحقا مكتسبا بمعاهدة ابن الجهم مع كنون .

كانت حملة عبد ا لله بن الجهم ذات أهمية تاريخية ليس في أنها هزمت البجة وجعلت بلادهم تحت سيادة الخليفة المأمون ، ولكنها كانت دعوة حارة للقبائل العربية للإفادة من المعاهدة باستغلال مناجم المعدن والزمرد في وادي العلاقي الذي هو جزء من مملكة البجة . ويشير ابن حوقل إلى أن من بين أصحاب ابن الجهم من رأى التبر في المناجم ورأى آثار عمل الروم فيه من قبل [1] ، ولذلك فقد وضعوا في قرارة أنفسهم أن يعملوا في هذه المناجم بمجرد انتهاء الحرب . ومما لا شك فيه أنهم كانوا تواقين إلى الانتصار على البجة لوضع أيديهم على معدن التبر والزمرد والفضة ، كما كان البجة حريصين على النصر للاستمرار في إغاراتهم على صعيد مصر .

لذلك فان هذه الحرب التي استعرت في أيام المأمون سنة ٢١٦هـ (٨١٣م) كانت قد وضعت اللبنات الأولى لاستغلال مناجم الذهب في وادي العلاقي رغبة في الثراء ، كما قام العرب المسلمون قبل ذلك أيضا بشراء الأراضي الزراعية من النوبة في أراضيها من أصحابها ، وصاروا يملكون بعض المزارع في مملكة النوبة . وكان كل من التعدين في أرض البجة والزراعة في أرض النوبة مصدر تزاوج واندماج بين العرب المسلمين والنوبة المسيحية والبجة الوثنية التي أسلمت ، كما كان مصدر نشر للدين الإسلامي بين أبناء هذه الممالك .

---

[1] كان ذلك في سنة ٣٣٢ هـ . (مسعد ص ٦٧

وقد وصف المقريزي هذا الاختلاط مع البجة قائلا إنه : " كثر المسلمون في المعدن فخالطوهم ، وتزوجوا فيهم ، وأسلم كثير من الجنس المعروف بالحدارب إسلاما ضعيفا ، وهم شوكة القوم ووجوههم " . ويعني هذا أيضا إيقاف الصراعات على الحدود التي كثيرا ما أودت بالأرواح ، وقللت من عدد السكان خاصة بين النوبة والبجة بسبب المعارك وبيع الأسرى من ذكور وإناث منهم في مصر وغيرها ، مما خفض من القوى البشرية في الأراضي السودانية . ويتضح من المعاهدة التي أبرمها عبد الله بن الجهم مع كنون بن عبد العزيز أنها لا تشير إلى حق التعدين للمسلمين في مناجم الذهب ، كما أنها لا تظهر إن كان هناك ذهب في أراضي البجة ، أو أن للمسلمين الحق في ريعه ، ولكنها كانت معاهدة تحدد أشياء خاصة تحفظ بها بعض الحقوق للمسلمين من عرب وبجة وغيرهم تتمثل في دفع الخراج سنويا للدولة العباسية ، وفي إتاحة الفرصة للتجار المسلمين لممارسة التجارة في بلاد البجة أسوة بما أعطاهم إياه عبيد الله بن الحبحاب إذ أنه هو أول من صالحهم من المسلمين على ثلاثمائة من الإبل فى كل عام حتى ينزلوا الريف مجتازين تجارا غير مقيمين . وكان وكيلهم مقيما بالريف كذلك سمحت هذه المعاهدة لعمال أمير المؤمنين بجمع الصدقات من سائر المسلمين فى البلاد . أما عن الذهب وما يجب أن يدفع للدولة حين استخراجه من سمح لهم بالتعدين ، فإن هذا لم يذكر فى المعاهدة ولو أنها تضمنت أن السيادة على إقليم البجة للمأمون . وهذا يعنى ضمنا حق الخليفة العباسي فى ما يستخرج من باطن الأرض لأنه صاحب السيادة ، وأن لم يكن ذلك قد ذكر صراحة .ولم تدم هذه المعاهدة طويلا لعدة أسباب من بينها أن طلاب الذهب والزمرد من المسلمين قد كثروا فى وادى العلاقى التابع لمملكة البجة مما دل على أنهم

ينوون الاستيطان فى تلك المملكة ومضايقة سكانها فى أراضيهم ومراعيهم وثرواتهم .وكانت بعض هذه القبائل العربية قد استرقت كثيرا من النوبة غير المسلمين وأرسلتهم للعمل فى المناجم ، وهذه ظاهرة قديمة بقدم الفراعنة الذين كانوا أول من وضع هذه السياسة لاستخراج الذهب والزمرد بتكاليف قليلة وجبى الثروة الطائلة من المتاجرة فيه . وقد أقام العرب المسلمون عدة مراكز ومعسكرات لهم فى أرض المعدن ووصف اليعقوبي وادي العلاقى بأنه كالمدينة العظيمة به خلق من الناس ، وأخلاط من العرب والعجم ، وبها أسواق وتجارات ، وشربهم من الآبار تحفر فى وادى العلاقى . ويضيف بأن لكل قوم من التجار وغير التجار عبيداً من السودان يعملون فى الحفر . ومن أهم المراكز التى يجتمع فيها الناس مركز " كمار " وبه قوم من ربيعة ، كما أن جماعة من قبيلة بلى وجهينة نزلوا فى موضع يقال له " ميراب " .وتنزل جماعة من سليم فى " دح " ومعهم بعض المضريين الذين نزل بعضهم فى موضع يسمى السنطة[1] . وكان أن عمد العرب إلى حفر آبار فى هذه المناطق مما أثار مخاوف البجة من أنهم لا ينوون التعدين والتجارة فحسب ، ولكنهم يريدون أيضا الاستيطان فى البلاد ثم الاستيلاء على الأراضي. لذلك فقد قرر البجة طرد كل العرب من أراضيهم وإخلائها منهم تماما . فما كان منهم إلا أن أجبروا كل المقيمين فى أرض المعدن على الخروج من البلاد بل قتلوا بعضهم وسبوا بعض النساء والأطفال . ولما كان العرب فى عدد أقل ، وبدون قيادة موحدة ، كما كانوا بعيدين عن الفسطاط أو أسوان ، لذلك

---

[1] يتخوف البجة من كل غريب يحفر بئرا فى بلادهم ولذلك فانهم لا يسمحون له بذلك لانهم يعملون ان توفر المياه هو اساس الاستقرار والاستيطان ولذلك نقل الابار فى بلادهم .

فلم تكن لهم مقاومة لأعمال البجة وفروا من أمامهم حتى وصلوا إلى صعيد مصر يطلبون النجدة من الوالى العباسى المقيم هناك .

وكان الصعيد الأعلى مركز اهتمام الخلفاء العباسيين وأمرائهم فى مصر لأنه غنى بمعادن التبر والزمرد من ناحية ، ولأنه يقع على حدود مصر الجنوبية من ناحية أخرى . وتتجلى أهمية هذه المنطقة فى نظر العباسين فى أن الخليفة كان يعين من قبله واليا على أسوان .ولا شك فى أنه كان يهم الوالى الإشراف على منطقة المعادن فى قفط وقوص وغيرهما وحماية حدود مصر من الغارات التى كان يشنها البجة والنوبة من حين لآخر[1] . وبالإضافة إلى ذلك فإن منطقة الصحراء الشرقية التى كان يسكنها البجة والتى تمتد من عيذاب على البحر الأحمر حتى أسوان وقوص كانت منطقة هامة تجاريا ، إذ كانت البضائع اليمنية والزنجبارية و الهندية والإفريقية والآسيوية تتدفق على مصر بعد وصولها إلى عيذاب بالسفن عن طريق حملها بالإبل البجاوية القوية . كما أن قادة القوافل وضمانها كانوا من أبناء البجة وهم الذين يحرسون هذه التجارة من مصوع ودهلك حتي عيذاب وقوص . وكان العرب يعرفون أنه يدرك بالتفاهم ما لا يدرك بالسيف ، ولذلك فقد كانت علاقات الخلفاء المسلمين مع البجة تعتمد أساسا على التفاهم رغم الحروب التى اندلعت معهم من حين لآخر . وقد ظهرت فوائد هذه السياسة من النشاط التجارى الذى كان يقوم به أمثال زكريا بن المخزومى وعبد الله بن إسماعيل القرشى وهما المترجمان الحاذقان . ولم يكتف البجة بالهجوم على المسلمين المقيمين بالمعدن بل مضوا إلى غزو صعيد مصر كسالف عهدهم وأضروا بالمسلمين هناك ،

---

[1] عبد المجيد عابدين : البيان والاعراب ص ١٠٦

وأثاروا القلق والاضطراب بسبب إغاراتهم المتكررة التى لم يستطع والى الخليفة العباسى اتخاذ خطوات قوية حيالها .

ويذكر مؤرخ البجة (١)[1]بأن الحكام فى صعيد مصر استاءوا من نقض المعاهدة والغزو ، مع أن البجة كانت تأخذ نصف المحصول ممن يعملون فى المعادن ويدفعون منه للسلطان سنويا أربعمائة مثقال تبر قبل أن يطبخ ويصفى . واشتدت حملتهم على المسلمين فى أرض المعدن التى انصرف عنها المسلمون و أخلوها خشية من ثورة البجة ، وبذلك انقطع ما كان يؤخذ للخليفة العباسي من المسلمين الذين كانوا يعملون فى التعدين واستخراج الذهب والزمرد .وكان الوالي على بريد صعيد مصر آنذاك أحد خدم المتوكل ويدعى يعقوب بن إبراهيم الباز عيسى وهو الملقب بقوصرة . وكان مسئولا عن بريد مصر والإسكندرية وبرقة ونواحى المغرب. فلما ثارت البجة على المسلمين فى أرض المعدن وأغاروا على صعيد مصر أرسل الخبر إلى الخليفة المتوكل في بغداد . واهتم المتوكل بهذه الأنباء ، واستشار من معه فيما يجب اتخاذه ضد البجة . وكان الرأي السائد لدى مستشاريه أن يترك البجة وشأنهم لأن بلادهم شاسعة ، وأنها قليلة المياه والكلأ ، جرداء لا تستحق الاهتمام . وعملا بمشورة من معه فقد أغضى المتوكل طرفا عن الأحداث في أراضي المعدن وما وراء صعيد مصر وما أثاره البجة من متاعب . ولكن عندما استشرى عدوانهم ، وألح المسلمون المقيمون هناك بالشكوى إليه اختار محمد أبن عبد ا لله القُمّي من ولد أبي موسى الأشعري ليقوم بمهمة تأديب البجة ، وإعادة الأمن إلى ذلك الإقليم ، وبث الطمأنينة في نفوس المسلمين القاطنين في تلك الديار ، كما ولاه معادن تلك المناطق ، وجعله واليا على قفط والأقصر

---

[1]محمد صالح ضرار تاريخ السودان البحر الاحر اقليم البجة دار مكتبة الحياة بيروت ١٩٦٥

وإسنا وأرمنت وأسوان . وكاتب المتوكل عامله في مصر عنبسة بن إسحاق الضبي ليقوم بتزويد القمي بكل ما يحتاج إليه هو وجنده للقضاء على ثورة البجة .

ومن سير أحداث المعركة التي دارت فيما بعد نجد أن القمي كان إداريا ماهرا ، وقائدا حربيا ممتازا ، لأنه أحسن إعداد جيشه الذي خرج لملاقاة البجة في تلك البرية المقفرة الجرداء . ويروي لنا المؤرخون أنه كان يحمل معه حسك الحديد ، كما كانت معه أجراس كثيرة ، وطبول زنجية ضخمة ، وأسلحة جيدة . وكان قد أجرى الدراسات اللازمة لتحركات أعدائه البجة ، وما كانوا عليه من حب استطلاع لكل ما لا يعرفون ، وعدم اشتباكهم مع أعدائهم في معركة فاصلة ، وركوبهم للإبل السريعة النفورة التي تذعر من الأصوات العالية التي لا تألفها . كذلك فإنه اختار موقع المعركة على أن تكون بالقرب من سواحل البحر الأحمر حيث أمكنه حمل الدقيق والشعير والأطعمة والعلف في سبع سفن أبحرت من القلزم ورست بالقرب من ميناء عيذاب ، وفيها المياه والتمر والزبيب والسويق وغيرها . ويبدو أنه لم يترك شيئا يمكن أن يكون ذا فائدة في تلك الأصقاع إلا قد أتى به في جيشه الذي كان مكونا من بعض الجنود العربية الإسلامية في مصر . كما دخل معه في جيشه كثير من المتطوعين الذين كانوا يعملون في المناجم ، ويعرفون طبائع البجة وسلوكهم في الحروب . وكان من بين هؤلاء ألف مقاتل من ربيعة التي كانت قد وصلت أغلبيتها لتوها من الجزيرة العربية ، ووجدت نفسها في مواجهة مع أصحاب المعدن . وبلغ عدد من معه من جنود ومقاتلين ومتطوعين وخدام حوالى عشرين ألف رجل .

أما ملك البجة على بابا والذي يدعوه البجة " أولباب " [1] فقد جمع رجاله من كافة أنحاء ممالك البجة حتى قدر بعض المؤرخين أن عدد جيشه كان يقارب المائتي ألف محارب على الإبل . ولا شك في أن هذا العدد أكبر بكثير مما يمكن للبجة إعداده لمعركة تقع في أقصى شمال بلادهم . ولكن بما عرف عن البجة من استماتة في القتال ووقوفها صفا واحدا ضد أعدائها فإنهم لا شك كانوا أكثر عددا من المسلمين الذين أوجسوا خيفة من كثرتهم . وكان من بين هؤلاء الجند عدد من مسلمي البجة الذين أسلموا إسلام تكليف ، ولكنهم لم ينخرطوا بعد في الدولة الإسلامية التي لم تنشر بعد سلطتها على بلادهم بل اكتفت بالتجارة وأخذ الصدقات ممن أسلم منهم .

وكعادة البجة في الحروب فإنهم قرروا عدم الاشتباك في معركة فاصلة مع المسلمين وعمدوا إلى المناوشة والانسحاب متى حمي الوطيس وأخذوا يستدرجون المسلمين داخل أراضيهم حتى تنفد المياه والأقوات والأعلاف.

ولكن كان محمد بن عبد الله القمي قد أعد لكل شئ عدته . وكان يتقدم بجيوشه نحو عيذاب في انتظار وصول السفن بالإمدادات والأقوات . وفي اللحظة التي توقع فيها البجة أن يكون زاد المسلمين قد نفد ، وقرروا الخوض معهم في معركة كبيرة لصالحهم ، وصلت تلك السفن بما فيها ، وكان

---

[1] أولباب هو الاسم البجاوي لهذا الملك ومعناه " الولي علي " وهذا الاسم يوحي إلى أن هذا الملك الذي عرب المؤرخون اسمه بعلي بابا كان مسلما ، ولم يكن وثنيا كما قال بعض مؤرخي العرب في شئ من الحذر اذ كانوا يقولون بأنه عندما ذهب الى المتوكل كان يحمل معه صنما في هيئة صبي . ومن يدري عما اذا كان قد ورث ذلك الصنم من أجداده البلويين الذين قدموا الى الجزيرة العربية قبل الاسلام .

أن ارتفع الروح المعنوي لدى المسلمين بينما ساد العجب في صفوف البجة لأنهم لم يألفوا مثل هذه الخطط الحربية .

وتذكر المصادر أنه قبيل المعركة نثر القميبعض حسك الحديد ربما في ساحة المعركة ، ولم يكن البجة يعرفون شيئا عن هذا الحسك الذي كان تكنولوجيا عليا في ذلك الزمان مما يضر بأخفاف الإبل ، وأرجل المشاة ويعطلها عن السير . كذلك أمر القمي رجاله برفع الكتب [1] التي أعدها من قبل على بعض الأشجار ، فاندفع نحوها كثير من محاربي البجة يستطلعون الأمر ، فانفرط نظامهم . وبينما هم في تجمعهم ذاك أمر القمي بضرب الطبول الزنجية التي كانت معه ، وأمر الخيالة بالهجوم وقد ربط حول أعناق الخيل الأجراس ، فذعرت إبل البجة من هول الأصوات والضجيج ، وفرت تطلب النجاة في الفيافي وهي لا تلوي على شئ . وتمكن فرسان المسلمين من ملاحقتهم وضربهم بالسيوف حتى أوقعوا بهم الهزيمة ، وبقى علي بابا في قلة من الرجال ، وانتهت المعركة وطلب الصلح ، فأمنه القمي ، وشرط عليه أن يطأ بساط الخليفة في بغداد مذعنا لسلطانه ، وكان ذلك في سنة ٢٤١هجرية ٨٥٥ م . ورحل القمي ومعه علي بابا وابن ملك النوبة المسمى " قيرقي " أي جورج ، وعبروا مصر ، ومنها إلى بغداد . ولما وصلوا بغداد " وجدوا أن الخليفة المتوكل بمدينة سُرّ مَنْ رَأى ، فأحسن استقبال علي بابا ، وخلع عليه وعلى زعماء العشائر الذين كانوا معه ، كما كسا جمل علي بابا رحلا

---

[1] المقصود بالكتب صحائف ونشرات وضعت لتسترعى انتباه البجة الذين كانوا لا يعرفون الكتابة ، وقد عجبوا دون شك من هذه الصحف المعلقة على الأشجار .وشغلهم حب الاستطلاع عن مجريات المعركة .

مليحا . واعترف المتوكل لعلي بابا بالسيادة والملك على طريق ما بين مصر ومكة المكرمة . " [1] ويذكر محمد صالح ضرار مؤرخ البجة بأن الخليفة المتوكل وضع على رأس الملك على بابا عمامة سوداء (شعار بني العباس) بدلا من التاج . [2] وكان ذلك إيذانا باعترافه بأنه من ولاة بني العباس ، وعوض الخليفة المتوكل الملك علي بابا عن رجاله الذين قتلوا في حربهم مع القمي ، وحدد يوم الدفع على أن يكون يوم عيد الأضحى سنة ٢٤١هـ وقد تم ذلك بالفعل . ووعد على بابا أن يسمح للمسلمين بالعمل في أرض المعدن واستخراج الذهب .وكان هذا الشرط صراحة في الاتفاق الذي تم بين علي بابا والخليفة المتوكل [3] ، حتى لم يعد هناك مجال للخلاف على أي نص في الاتفاقية .

هكذا نجحت حملة القمي من الناحية العسكرية والسياسية فهي قد حطمت قوة البجة وأجبرتهم على قبول الصلح مع الدولة العباسية . أما من الناحية السياسية فقد كسبت مودة القبائل البجاوية وملوكها وذلك بمعاملتهم الحسنة لهم سواء في أراضيهم أم في عاصمة الخلافة العباسية . وضمنت للمسلمين العمل في أرض المعدن واستخراج التبر والزمرد منه ، وإعطاء ملك البجة حصته من ذلك التبر ، وإعطاء الخليفة حق الدولة مما يستخرجون من باطن الأرض . كذلك اعتمد المتوكل سيادة ملك البجة على أراضيه وخاصة في براري صعيد مصر الشرقية وشمال بلاد السودان ، وهي المنطقة التي يسيطر

---

(١) محمد صالح ضرار : تاريخ السودان – البحر الأحمر – اقليم البجة . دار مكتبة الحياة – بيروت – ص ٥١ .

(٢) محمد صالح ضرار : تاريخ السودان اقليم البجة والبحر الأحمر – بيروت .

(٣) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٨٢ .

عليها البجة منذ أقدم عصور التاريخ . وكانوا هم الساهرون على تأمين سير القوافل والتجارة والحجيج عبرها . وبذلك قلت فرص الخلاف بين الدولة العباسية ومملكة البجة .

ولما كان وادي العلاقي هو أكبر مجمع للصناعة والتجارة والحياة الاجتماعية في ذلك العصر ، فان الخليفة المتوكل ضمن للإسلام الانتشار بخطوات أسرع في تلك المملكة لاجتماع البجة والمسلمين والنوبة في ذلك الوادي . وكان من المتوقع أنه عن طريق التعامل التجاري ، والتزاوج والاختلاط والمصاهرة أن يتم الامتزاج بين المسلمين والبجة وهو ما قد حدث بالفعل . وكان على رأس الذين قاموا بهذه المصاهرة قبيلة ربيعة التي رأيناها تنزح من ديارها بنجد قبيل ثلاث سنوات من معركة الأجراس [٤] التي انتصر فيها القمي .

ومع أن القمي كان قد نجح نجاحا لا مثيل له في كل ما أعد لهذه الحرب إلا أنه فشل في حصاد انتصاره ذلك لأنه كسب معاداة قبيلة ربيعة في تلك الأماكن ، وقد رأينا كيف أنه عين واليا على المنطقة من قبل سعد الخادم ، ولكنه وهو وال على البلاد شكا إليه الناس من أشهب ربيعة وهو يزيد بن بشر صاحب مدينة المحدثة المحادة لأسوان [١] " ، إذ كان قد مس الناس بالجور . " فألقى القمي القبض عليه وأجرى معه تحقيقا حول الشكوى ، فلم يجد عليه شيئا ، ولكنه أبقاه في الحبس وقتا طويلا ثم أطلقه . ولكن كان هذا العمل قد أثار حنق أشهب على القمي ، وقرر اغتياله لمعاملته

---

[٤] هذه تسمية مقترحة لأن أحد العوامل الأساسية في هزيمة البجة كانت الأجراس التي استعملها القمي .

[١] ابن حوقل : صورة الأرض

السيئة له دون وجه حق . ولم يكن حنق أشهب وحقده خافيا على أحد ، وقد نبه الناس القمي إلى ذلك ، حتى يتخذ الحيطة لنفسه أو يقي نفسه شر أشهب . ولكن القمي الذي كان واليا على المنطقة من قبل الخليفة . لم يشأ أن يقضي على أشهب ، وكان يقول : " لأن يلقى أشهب الله بدمي أحب إلى من أن ألقاه بدمه " . وهكذا آثر أن يركن إلى ضبط النفس .

ولم يزل أشهب يتحين الفرص لاغتياله حتى تم له ذلك في سنة خمس وأربعين ومائتين ٢٤٥ هجرية (٨٥٨) م .

وهنا يورد ابن حوقل النتيجة التي حدثت من جراء فعل أشهب فيقول : " وزال مذ ذلك أمر السلطان بالعلاقي ، وهلك المتوكل ، وضبطت البجة أطرافها ، والإسلام في بعضها مريض " .

والواقع فإن مقتل القمي في تلك السنة ، واغتيال الخليفة المتوكل في العراق ، كلا الحادثين قد ترك فراغا كبيرا في السلطة في بغداد وفي وادي العلاقي . وفي تلك اللحظة لم يكن واضحا من الذي سيحتل مكان القمي الذي خلا ، وهل هو أشهب ربيعة أم أحد رجال المسلمين الأكفاء . وكانت ربيعه على قوتها – لا تمثل الأغلبية العربية في تلك الديار التي هي حديثة عهد بها ، كما أنها كانت تجاور قبيلة مضر وجهينة وغيرهما من القبائل العربية الأخرى . ورأت ربيعة الانتظار لأنها لم تكن قد أعدت نفسها لزعامة أو ملك في ذلك الإقليم بعد .

ومما لا شك فيه أنها وقفت تناصر زعيمها أشهب وتنتظر ما يستجد من أحداث .

ولم يجئ في كتب التاريخ التي بين أيدينا ما يوضح ما حدث لأشهب ربيعة بعد قتله للقمي ، ولم يذكر شئ عما إذا قامت الدولة العباسية بإلقاء

القبض عليه وتوقيع الجزاء اللازم عليه إزاء ما اقترفت يداه أم لا. وبدا وكأنه لم تعد هناك حكومة تفرض الأمن والسلام ، وتؤمن الأرواح والممتلكات في تلك البقاع . وبينما الأمر كذلك ، ظهر في تلك الجهات فتى قرشي عالم شاعر مجاهد مغامر هو حفيد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأسمه أبو عبد الرحمن (عبد الله بن عبد الحميد بن عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله أبن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أبو عبد الرحمن العمري العدوي القرشي " . [1]

كانت حياة العمري حافلة بالأحداث منذ قدومه إلى صعيد مصر وأراضي البجة والنوبة في سنة ٢٤١هـ ٨٥٥م . وكان ذا أسفار كثيرة فهو قد ولد في المدينة وأخذ العلم عن رجالها . ووصفه المقريزي في المقفى بأنه بالإضافة إلى تفقهه في علوم الدين فقد كان ذا معرفة بالنجوم والفلسفة ، كما أنه خرج من المدينة في أسفار له حتى وصل إلى القيروان واتصل بإبراهيم بن الأغلب ومدحه فوصله إبراهيم بألف دينار . ومن هناك ذهب إلى مصر وفيها علم بأن القبائل العربية قد أخذت طريقها إلى أرض المعدن في وادي العلاقي التابع لملك البجة ، وأن تلك المنطقة قد كانت سوقا رائجة للتجارة بأنواعها وخاصة الذهب لكثرة الذين يعملون في استخراجه . فسار إلى أسوان سعيا وراء التجارة ، ومن هناك قر قراره أن يمضي إلى أرض المعدن .وكان العرب المقيمون في تلك النواحي قد انشغلوا باستخراج الذهب . وكانوا يشترون الرقيق من النوبة أو من النوبيين الذين سبق أن وقعوا أسرى في يد المسلمين بمصر وصعيدها . وكان يؤخذ هؤلاء إلي أرض المعدن لاستخراج الذهب . فاشترى عددا من هؤلاء الرقيق من أسوان ، وقد ساعده في ذلك علمه الذي

---

[1] المقريزي : المقفى عن مسعد .

هيأ له مكانة خاصة بين علماء أسوان من المسلمين وكبار رجالها الذين جاراهم في العلم وتعرف بهم عن تلك السبيل .

ولما كانت أرض المعدن ملتقى كل القبائل العربية المهاجرة إلى مصر وصعيدها ، فقد كانت هذه البقعة أيضا مسرحا لصراعات ومنافسات قبلية بين العرب الذين نزحوا إليها . وكان الخلاف على أشده بين مضر وربيعة .

وانتهى هذا الخلاف بأن قتلت ربيعة أحد رجال مضر . ولما كان العمري متفقها في الدين فقد رأى أن يتزعم القضاء في تلك المنطقة الخالية من القضاة ، وتدخل في الأمر ونصب من نفسه قاضيا . غير أن المضريين وربيعة اتفقوا في ما بينهم على أن يقاد ولي الدم ، ولم يدخلوا العمري في هذا الأمر . فثار على مضر حتى شعروا بأنهم أخطأوا في حقه ، فاسترضوه وذكروا له بأنهم لم يكونوا يعلمون أنه يريد أن يتدخل في هذه الأمور . فلما أفصح لهم عن رغبته في التدخل قبلوا بذلك ، فطلب منهم مبايعته على ألا يقضوا أمرا من هذا دون أن يكون له فيه رأي . فبايعوه على ذلك ، فما كان منه إلا أن قيدهم بتلك البيعة والأيمان المؤكدة ، وجعل من نفسه زعيما . ثم أمرهم بالرجوع عن الصلح وعن قبول القود ، كما طلب منهم حمل السلاح ومحاربة ربيعة معه .

وهكذا دخل العمري في معارك مع ربيعة ، ووطن العزم على إخضاعها بمن بايعه من مضر . وكان قد نزل جزء من ربيعة بالقرب من النوبة والجزء الآخر مع البجة في أرض المعدن حتى عيذاب .

واشترك العمري في نفس الوقت في البحث عن الذهب ، وكان يعمل في منطقة لا توجد بها مياه لاستخدامها في تصفية التبر من الرمل ، ولكنه رأى بعض طيور الماء في تلك الأنحاء وهي تطير إلى ناحية الجنوب من ذلك المكان ،

فأرسل وراءها من يتعقبها وهي تطير ليعرف أين تحط ، ويحدد موقع المياه وهو يرى أن النيل ربما كان قريبا من تلك الجهة . وبالفعل فقد عاد إليه الرواد وهم يحملون نبأ قرب النيل من تلك الجهة وأن على شواطئ النيل يسكن النوبة من التابعين لمملكة المقرة .

فأوفد رجاله إلى موقع المياه لجلبها ، غير أن النوبة منعوهم من ورود الماء ، ولم يقبلوا منه رجاءه وطلبه ليسمح له بارتياد المياه . وعطش من كان بأرض المعدن من العرب لتأخر وصول الماء من النيل حتى يقال بأنه ارتفع سعر الماء ، وصار المكيال المعروف بينهم لكيل الماء وهو الشنكة بدرهمين تبرا .

ولما لم يصل العمري مع النوبة إلى حل لهذه المشكلة ، واعتدى النوبة على رجاله ، وقتلوا جماعة منهم ، وأسروا آخرين ، رجع بمن بقى معه إلى أصحابه ، ودعاهم للاستعداد لقتال النوبة . وقام بإعداد السلاح اللازم لذلك ، واتخذ من معدات التعدين الحديدية رماحا وآلات حرب ، وجهز بها جماعته ، وخرج إلي النوبة ، وقد أخفى الأمر عنهم ، وباغتهم في ديارهم في شنقير التي تقع " قبلي بلدة دنقلة بنحو شهرين . [1] وكانت مباغتته للنوبة شديدة

---

[1] نشبت هذه النزاعات جنوبي وادي العلاقي ، وبعيدا عن منطقة النوبة الواقعة جنوبي أسوان . ويصف المقريزي موقع شنقير هذا فيقول بأن " النيل ينعطف في هذا الموضع الى مطلع الشمس ، حتى يصير بينه وبين الشنكة بعض نهار ، ثم يعود النيل الى الغرب ، ويرجع الى الشرق ، فبهذا التعطف طالت المسافة على سالك النيل ، وقد تركت النوبة هذه العطوف ، وجعلت طريقها المجاوب ، فصارت تقطع مسيرة شهر في يومين . " ويبدو أن الفزع قد تملك النوبة عندما رأوا العمري وراء ظهورهم في شنقير بعيدا كل البعد عن دنقلة ، مما أثار مخاوفهم لأنه سيقطع عليهم طريق التقهقر على النيل اذا ما ضايقهم المسلمون وهجموا على دنقلة . كما أن وجوده في شنقير سيقطع اتصالهم

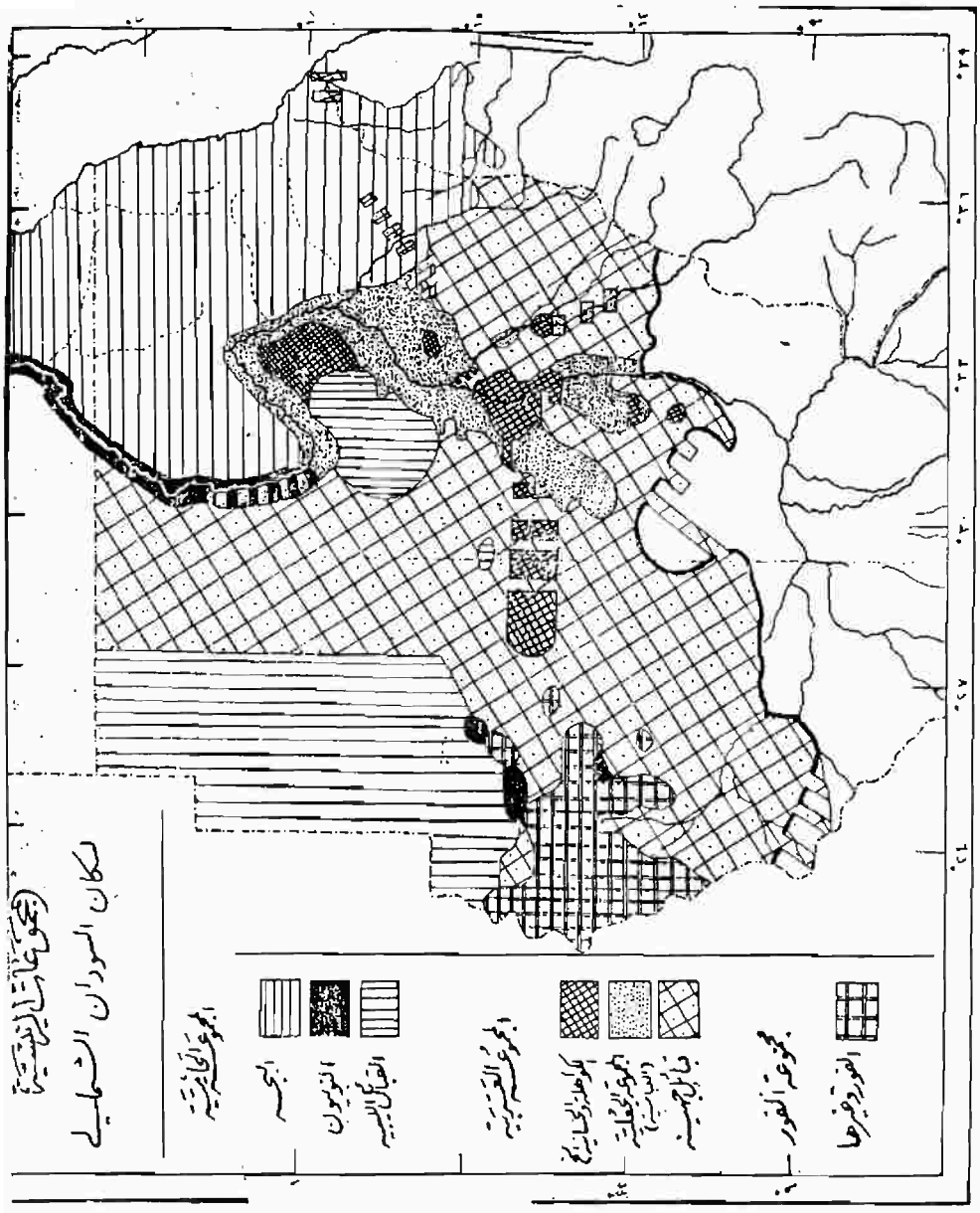

(شكل ١١)

الحيوي بمملكة علوة اذا ما أرادوا الاتصال وطلبوا المساعدة من سوبة التي كانت على بعد حوالي عشرين ميلا جنوبي الخرطوم .

والشنكة مكيال كما أنها موضع لتعدين الذهب .

إذ أخذوا على حين غرة . وأعمل العمري فيهم قتلا لعدم استعدادهم للحرب [1] ، ووقع عدد كبير منهم أسرى في أيدي أنصار العمري ، وكثر السبي ، وكانت هزيمة كبرى للنوبة ، وبيع أسراهم في كل مكان بأقل الأسعار . ويضيف المقريزي بأن أصحاب العمري كانوا حين يحلقون رؤوسهم يدفعون للمزين رأسا من الأسرى النوبة على تلك الحلاقة . وقد كانت المفاجأة عظيمة بحيث جعلت الكثير من أبناء النوبة يعبرون فارين إلى ضفة النيل الأخرى يطلبون النجاة . ولكن العمري ألح فى طلبهم وأخذ جماعة قليلة من رجاله وأمرهم بالسباحة باستخدام القرب المنفوخة للعبور إلى الشاطئ الآخر لإحضار مراكب النوبة خلسة إلى الضفة الشمالية حتى يقوم بقية رجاله بالعبور عليها لملاحقة من فر من النوبة إلى هناك . وأخذته نشوة النصر ، ورأى أنه قاب قوسين أو أدنى من القضاء على مملكة النوبة والاستلاء عليها .

---

[1] كانت مباغتة العمري للنوبة ذات أثر عظيم لأنهم كانوا يعدون جيوشهم دائما في مواجهة صعيد مصر لصد أي عدوان عربي من الشمال ، ولم يتوقعوا مثل هذا الهجوم الذي حدث عن طريق الصحراء ، ولم يأخذوا حذرهم من أن رجلا مثل العمري قد يقطع تلك الصحراء حتى يصل منطقة أبي حمد ويأخذهم على حين غرة في غياب جندهم وقيادتهم .

ولم يكتف العمري بذلك بل انه استنفر أهالي أسوان للخروج أيضا معه للقضاء على دولة النوبة . ومن بعد أن كان باحثا عن الذهب والماء جعلته المغامرة يسعى وراء الملك ، وجعل من نفسه زعيما وطنيا دينيا سياسيا ، وأخذ يقود جنود العرب المسلمين وراء أهدافه التي تمثلت الآن في الاستيلاء على مملكة النوبة .

وكان من بين الذين لبوا دعوته عثمان بن حنجلة التميمي الذي جهز ألف راحلة فيها الدقيق والطعام . وسر العمري بمقدمه ، وقوي جيشه العربي بهذه المساعدة ، وتعقبوا النوبة في بلادهم ، وأهلكوهم ، ووقع المزيد من الأسرى في أيدي أصحاب العمري ، وأخذوا إلي أسوان حيث بيعوا بأثمان زهيدة لكثرتهم .

شعر النوبة بسطوة العمري ومن معه من مضريين وغيرهم ، وأخذوا يعدون الرأي والعدة في سبيل إيقاف هذه الانتصارات العمرية الساحقة ، ودخلوا معهم في معارك كثيرة بعد ذلك غير حاسمة . وكان ملك النوبة حينذاك قيرقي أو جورج بن زكريا ، وهو الأمير النوبي الذي سافر مع علي بابا ملك البجة إلى سرمن رأي وشاهد بغداد وعظمة الخلافة الإسلامية بعد انتصار القمي على البجة .

وأرسل قيرقي أحد قواده وهو نيوتي بن قشما ابن أختة ليوقع بالعمري ويقضي عليه . ولكن ما لبث أن توصل نيوتي إلى صلح مع العمري وترك جانب عمه ملك النوبة ، واتفقا على أن تكون بعض البلاد له ، فلا هو يهاجم العمري ولا العمري يسعى للقضاء عليه . وقبل العمري بهذه المخالفة إذ أنها كانت تعطيه الفرصة لتكوين دولة مستقلة في المستقبل .

واستقر رأي قيرقي في آخر الأمر أن على إرسال ابنه زكريا إلى قتال العمري . وقد دلت الأحداث التي جرت بعد ذلك على ذكاء زكريا ودهائه إذ وضع الخطة على أن يفرق بين نيوتي بن قشما وبين العمري . واحتال على استمالة العمري له بوعده بتزويجه أخته التي كانت زوجة لابن قشما . ولما كان العمري يعرف أن وراثة الملك في مملكة النوبة تأتي عن طريق ابن الأخت ، وكان والد زكريا شيخا كبيرا يقال إنه حكم حوالي مائة وأربع سنوات ، لذلك فقد رأى العمري أن ينتهز تلك الفرصة ويضحي بحليفه ابن قشما في سبيل أن يرث أحد أبنائه ملك النوبة ، ويستطيع بذلك أن يقيم نيابة عن ابنه دولة متطورة في شمال السودان وصعيد مصر .

وإزاء هذا الاتفاق بين زكريا والعمري استطاع زكريا أن يغتال ابن قشما بعد أن استدرجه على أنه أسير عند العمري . وصدق ابن قشما الخدعة ، وكان مع عدد قليل من رجاله .وقد سبق للعمري وزكريا أن اتفقا معن على قتل ابن قشما . وفي اللحظة المحددة ، وتجاوبا مع اشارة زكريا انقض الرجال الأربعة التابعون لابن قشما عليه ، وانهالوا عليه ضربا حتى قضوا عليه . ثم نادى زكريا تابعي ابن قشما من أبناء النوبة ومناهم بالعطاء والمناصب فتبعوه ووثقوا به ، ثم إنه أظهر لهم نواياه في أنه يريد أن يقضي على العمري الذي أصبح في قلة من النفر والرجال . فخرج عليهم زكريا برجاله ، وفاجأ العمري ورجاله ، وأوقع بهم موقعة عظيمة " وانهزم العمري وأصحابه ، وتركوا جميع ما معهم لا يلوون على شئ " . [1] وحاول رجاله الذين كانوا في المراكب أن يفروا بها عبر الجنادل في النيل . ولكن زكريا كان قد دس لهم دليلا من رجاله لكي يوقع بهم في جنادل النيل حتى يقضي

---

[1] (١) المقريزي : المقفى :ـ مسعد : المكتبة السودانية العربية

عليهم . وبالفعل فقد سار بهم هذا الدليل وسط الشلالات ، فتحطمت المراكب ، وصعب على المسلمين إنقاذ أنفسهم من مياه النيل ، فغرق منهم من غرق ، وقتل من قتل ، ونجا الدليل سباحة إذ كان خبيرا بها وبالمنطقة . واستطاع العمري أن ينجو بنفسه وببعض رجاله من قبيلة سعد العشيرة الشامية اليمنية ، وقيس عيلان العدنانية ، وأصبح في قلة من الرجال ، فعرض عليه زكريا الصلح على أن يخرج من أراضي مملكته .

ولما كان العمري قد خسر كل ما كان لديه من مال وعتاد وقوة ، فإن موقفه كزعيم لرجاله كان قد تأثر كثيرا ، وظهر منه ما جعل سعد العشيرة تتهمه بأنه كان يمالىء قيس عيلان التي هي عدنانية مثله وليست يمانية ، فثاروا عليه . وبلغ الأمر زكريا الذي كانت له بقايا عيون في جيش العمري لمتابعة نشاطه ، فعرف بما كان بين سعد العشيرة والعمري ، فاتصل بهم سرا ووعدهم بعض الإقطاعيات في مملكته إن هم تركوا العمري وانضموا إليه ، فقبلوا بذلك ، وانضموا إليه ، فأعطاهم ما وعدهم وأسكنهم مناطق ديدان وأدوى ، وبذلك أضعف من قوة العمري العسكرية .

غير أن العمري لم يفقد الأمل في استعادة مكانته السياسية والحربية ، فانحدر إلى أرض المعدن حيث رجال القبائل العربية ، واستمالهم إليه مرة ثانية ، ثم اتصل بسعد العشيرة للرجوع إليه ، فوثقوا بقوله ، وخرجوا إليه ، ولكنه بدلا من أن يستقبلهم بالفرح ، استقبلهم بالرماح والسيوف وأوقع بهم حتى قتل منهم ما يقارب الألف وخمسمائة رجل ، وقبض على من بقي منهم حيا ، وأعمل فيهم السيوف وقطع أيديهم وأرجلهم وتركهم في الفيافي حتى هلكوا [1].

---

[1] المقريزي : المقفى عن مسعد ص ٣٦٤

بعد هذه المجزرة خشي زكريا من استعادة العمري لسابق قوته ، فخرج إليه في جموع كبيرة . وكان العمري في جهات مريس ، غير أن العمري رأى أن لاقدرة له على جيش زكريا الضخم فتقهقر نحو أسوان ، ونزل قرية على بعد مرحلة من أسوان .

علم أحمد بن طولون والى العباسيين على مصر بنشاط العمري في بلاد النوبة وصعيد مصر . وكانت جموعه من القبائل العربية مصدر قلق كبير لوالي مصر الذي لم يكن مرتاحا لمثل هذه الإمارة العربية القرشية التي يريد أن يقيمها العمري في أراضي مملكتي البجة والنوبة . ولما أرقته انتصارات العمري أرسل إليه جيشا بقيادة شعبة بن حركام البابكي . وكان قد بقي مع العمري من رجاله حوالي ألف ومائتي رجل . فأراد البابكي أن يقضي عليه وعلى رجاله ، كما أمره ابن طولون . وجرت مفاوضات بين القائدين ، وطلب العمري من البابكي أن يخبر ابن طولون بأنه ليس ثائرا ضد حكمه " ، وأنه لم يؤذ معاهدا أو مسلما ، وإنما خرج في طلب أعداء المسلمين " . بيد أن شعبة وكان أعجميا كما وصفه العمري لم يقبل هذا الحديث وأصر على القتال . فلما نشبت المعركة انتصر العمري على البابكي وفر رجاله تاركين وراءهم كثيرا من الغنائم مما ساعد العمري ورجاله في مواجهة العيش بعد الهزائم التي لحقت بهم من جراء حروبهم مع النوبة . وهرب شعبة البابكي إلى الفسطاط وحمل أنباء الهزيمة إلى ابن طولون .

لم يظهر ابن طولون اهتماما كبيرا بعد ذلك بالعمري ومحاولاته في أراضي النوبة والبجة ، فقد كانت له اهتمامات أكبر إذ أنه في سنة ٢٥٧ / ٢٥٨ هـ أخذ على الجند والشاكرية والموالي وسائر الناس البيعة لنفسه على أن يعادوا من عاداه ، ويوالوا من والاه ، ويحاربوا من حاربه من الناس جميعا

[1]كذلك فقد كتب إليه الخليفة المعتمد با لله يوليه الإسكندرية في سنة ٢٥٧ ، فشخص إليها في رمضان من نفس السنة . وعليه فقد كانت أيديه مليئة بالمسئوليات الجسام التي تتضاءل معها أحداث العمري والنوبة والبجة ، وهي أحداث لن تأخذ منه كثيرا من الجهد متى تفرغ إليها . كذلك فقد كان يعلم أنه ما لم يمكنه أن يدركه بالجيوش أمكن إدراكه بالاغتيال أو القتل غيلة من بين التابعين للعمري وأمثاله . وباستطاعة حكومته في مصر أن تلعب دورا حاسما في استتباب الأمن في الحدود الجنوبية متى أمنت على نفسها من الشام والعراق .

تابع العمري بعد ذلك نشاطه الحربي ، وعبر إلى شرقي النيل ، وكان قد واقع أحد ولاة ابن طولون في صعيد مصر بعد أن هزم شعبة ، ويمم وجهه نحو أرض المعدن حيث مركز كثافة القبائل العربية وذلك في سنة ٢٥٥هـ (٨٦٨م) ووجد قبيلة ربيعة التي كان قد حالف من قبل مضرا ضدها ، كما وجد بعضا من أعدائه العرب السابقين مثل سعد العشيرة الشاميين . وكان على ربيعة رجل يدعى أشهب بن ربيعة من بني حنيفة أبن لجيم بن صعب . وكان شيعيا ، ومعه آخر يدعى إياس بن روح . وكان هناك أيضا جماعة من بكر بن وائل وحلفائهم . أما الجهنيون فكان على رأسهم عثمان بن سعدان . ووجد أن عدد السكان في أرض المعدن قد ازداد ، وأن الحالة كانت أكثر رواجا مما كان قد عرفها ، وكلهم يعيشون مع البجة ، وأن الرواحل التي كانت تحمل إليهم الأطعمة والمؤن والبضائع من أسوان تبلغ ستين ألف راحلة غير المراكب التي كانت تعبأ في القلزم وترسل إلى عيذاب .

---

[1] اليعقوبي

وفي سنة ٢٥٥هـ ذهب العمري إلى أرض المعدن حيث يجتمع عادة البجة والعرب لاستخراج الذهب . فأوجس ابن طولون خيفة من الأمر ، فاعترض على بقاء العمري في تلك الديار ، فرد عليه العمري بأنه في مائة ألف محارب أو يزيدون ، فعدل ابن طولون عن اتخاذ قرار حربي بشأنه حتى تكون الظروف أكثر ملاءمة .

ولما كان العمري طموحا فقد رأى أن ينتهز فرصة الفوضى التي كانت تعم صعيد مصر ومملكتي النوبة والبجة ، وأن ينصب من نفسه أميرا على تلك المناطق عسى أن يحقق مآربه بإقامة دولته الجديدة . ورأى أن الفرصة سانحة فهو قرشي فقيه أديب ، والعرب تعرف وتعترف بالفضل لقريش عليها ، وستلبي القبائل العربية دعوته لمبايعته متى طلب منهم ذلك . وفي هذه المرة ، بعد أن انتهى من حروبه ضد النوبة رأى أن يقضي على مملكة البجة ويستولي على أرض المعدن الغنية والنائية عن أيدي ولاة العباسيين بمصر منذ أن أغتيل الخليفة المتوكل .

وكما رأينا فقد توصل البجة والعباسيون إلى صلح جديد بعد واقعة الأجراس سنة ٢٤١هـ وانتصار القمي عليهم . وكان أهم ما في هذا الصلح الجديد السماح للمسلمين باستخراج الذهب في وادي العلاقي . وحافظ البجة على اتفاقية الصلح هذه ما عدا بعض العصابات الفردية التي كان يطيب لها الإغارة على المسلمين في صعيد مصر من حين إلى آخر . وكان من بين زعماء هذه العصابات التي لم تلتزم بمعاهدة الصلح عصابة يتزعمها رجل بجاوي يدعى كلاز ، وكان له جمل سريع العدو . وقد تحدى كلاز هذا[1]

١

بعض أبناء وطنه من البجة على أن يغير على الفسطاط في أحد الأعياد عندما يكون الناس كافة في صلاة العيد ، وأنه سيشرف على المدينة من أعلى جبل المقطم ليثير الفزع في قلوب المسلمين وهم يصلون صلاة العيد ، ثم يتجه بعد ذلك إلى الصحراء الشرقية بمصر عبورا بها إلى شمال السودان الشرقي دون أن يستطيع رجال المسلمين القبض عليه أو اللحاق به .

وما حدث من كلاز هذا كان يحدث من رجال آخرين من البجة الذين كانوا لا يتورعون عن الإغارة على الآخرين كما يفعل عرب الجاهلية . ولذلك فقد لجأ بعضهم إلى الإغارة على صعيد مصر وخاصة أسوان التي كانت ذات أهمية حضرية كبرى في تلك الناحية . ويبدو أن

---

(1) يذكر المقريزي أن كلاز هذا كان له جمل سريع ، وكان الجمل أعور ، وكذلك كان صاحبه ، وكان يسبق عليه الخيل ، ويبدو أن كلاز هذا كان مغامرا محبا للرياضة لأنه على ما ذكر المقريزي كان قد قال لاقرانه من البجة بأنه على استعداد للشخوص إلى مصر وارتقاء جبل المقطم والناس يصلون العيد (مما يدل على معرفته التامة بأحوال مصر) حتى يدخل الذعر في قلوب الناس ثم يطاردونه بخيلهم دون أن يلحقوا به . وبالفعل فقد شخص إليهم ، ووثب على جبل المقطم . فلما رآه المصلون في مصر ذعروا وظنوا أن وراءه بعض المغيرين من البجة . وأسرع الجند إلى خيلهم يتسابقون نحوه ، ولكنه أوغل في الصحراء ولم يلحقوا به . ولا شك في أن هذه الحادثة لم تكن سوى نوع من التحدي الرياضي الذي عرف به بعض المغامرين من أبناء البجة لإظهار سرعتهم في العدو أو جودة جمالهم في السباق . كذلك فقد كان واضحا أن كلاز على معرفة تامة بالصحراء الشرقية في مصر ، وله القدرة على الولوج فيها حتى الوصول إلى أرض ذويه . والإبل السريعة العدو مثل جمل كلاز معروفة ويحرص عليها أصحابها حتى اليوم . أما ما حدث من البجة الذين أغاروا على صعيد مصر سنة ٢٥٥هـ فلم يكن أكثر من نشاط عصابات أرادت الإغارة وشيئا من السلب والاستمتاع بتلك الرياضة الحربية التي ورثوها عن آبائهم . وقد انتهزها العمري فرصة لتولي الزعامة على العرب في أسوان وصعيد مصر .

ويضيف المقريزي أنه منذ شخوص كلاز على قمة جبل المقطم في تلك السنة أقام ابن طولون ومن بعده من الولاة حراسة دائمة على تلك الناحية أثناء صلاة العيدين خوفا من غارات البجة المفاجئة ومغامراتهم التي لا يعرف مداها .

بعض تلك الغارات قد حدثت بعد قدوم العمري من حروبه مع النوبة وانتصارهم عليه ، ولم يكن قد نسي طموحه فأراد أن ينتهز هذه الفرصة ليتزعم حركة الدفاع عن مثل هذا الهجوم ومتابعة البجة في صحرائهم وتأديبهم . ولما كان قد وطن العزم على تنصيب نفسه زعيما فقد تبنى فكرة جديدة تجعله يكسب مساندة المسلمين له في أسوان ، فأعلن بأنه يفعل ما يفعل من أجل صد العدوان البجاوي وملاحقتهم في أراضيهم بغرض الدفاع عن الدين والمسلمين . وكان شعاره في ذلك " أنه خرج غضبا لله وللمسلمين " .[1] ولذلك فقد آزرته جماعة من أهل أسوان ، وتعقب البجة في أراضيهم التي كان يعرفها جيدا بسبب ما كان قد قام به من تعدين حين وصل إلى مصر سنة ٢٤١هجرية .

ويبدو جليا أن العمري استطاع أن يهزم العصابات البجاوية التي كانت تسكن في تلك المناطق ، وبسبب حماس رجاله وقلة رجالهم في تخوم أسوان استطاع أن يفرض عليهم دفع الجزية . (٢)

ويذكر المقريزي في المقفى أن العمري هو أول من أجبر البجة على دفع الجزية ولم يكونوا قد دفعوها من قبل لأحد . والبجة على ما رأينا دخلوا في عدة حروب مع المسلمين وانتهت كلها بصلح ومعاهدات مع دفع بقط قليل ، كما أنهم منذ ولاية عبد الله بن سعد بن أبي السرح على مصر قبل إسلامهم " على ضعفه " لأنه لم يكن هناك من المسلمين المتقدمين من سكن في بلادهم بعد ليفقههم في الدين . وكما هو واضح فان العمري قد نصب

---

[1] ابن الأثير عن مسعد ص١٧١

(٢) بمقتضى معاهدة بن الجهم كان على البجة أن يدفعوا الخراج وليس جزية بسبب اسلامهم السابق : راجع نص هذه المعاهدة في بداية هذا الحديث .

نفسه واليا على المنطقة ، وأخذ يحارب فئة مسلمة باسم المسلمين مما أثار شكوك ابن طولون والي العباسيين على مصر . ويلاحظ أن العمري فعل ما فعل في غياب السلطة العباسية في المنطقة وبدون إذن من سلطان مصر ، وأنه اتخذ ذلك الهجوم ذريعة لكي يجمع حوله الرجال مرة أخرى تحت شعار الذود عن الدين ونصرته .

أما ابن طولون الذي كان قد وصل إلى مصر في شهر رمضان في سنة ٢٥٤هـ ليصبح واليها الجديد فقد كان ينظر إلى العمري على أنه كان يحارب جماعة من رعايا الخليفة العباسي ، بل من رعاياه وهو الشاب الطموح ، وكان يعترف بمعاهدة ابن الجهم وكنون ملك البجة تلك المعاهدة التي أيدتها انتصارات القمي على زعيم البجة علي بابا سنة ٢٤١هـ ، ولذلك فلم ينظر ابن طولون إلى العمري على أنه خرج غضبا لله وللمسلمين في سنة ٢٥٥هـ ، ولم يقبل رد العمري بأنه لم يقتل ذميا ولا معاهدا وهو الذي نصب نفسه زعيما مرة ضد النوبة ومرة أخرى ضد البجة ، بل وضد القبائل العربية التي لم تذعن لإرادته مثل ربيعة وسعد العشيرة .

ومما زاد الأمور تعقيدا في الساحة البجاوية أن قتل البجة إبراهيم المخزومي وهو أخ للعمري من أمه . وكان على ما قيل قد ذهب عبر صحراء البجة إلى عيذاب مع جماعة بغرض التجارة .وربما كان السبب في قتله هو خوف البجة من أن يكون عينا لأخيه عليهم . وكانت البجة قد عاهدت المسلمين على لا تتعرض لتجارهم الذين يمتارون في أراضيها أو يعبرونها في تجارة أو حج أو غير ذلك . ولم يظهر منهم كمملكة أو دولة مثل هذا الاعتداء على أحد من المسلمين ، لذلك فإنه من الأرجح أن قتل إبراهيم المخزومي إنما كان أيضا

بسبب الثأر من أخيه بالإضافة إلى كونه هو وأصحابه إنما جاءوا للتجسس على أحوال البجة ومضارب خيامهم . لذلك رأى البجة أن يقضوا على إبراهيم ومن معه ، ويتغدوا به قبل أن يتعشى بهم العمري .

ولم تكن نوايا العمري وطموحاته خافية عليهم فقد كان يحاول تأليب القبائل العربية عليهم ، وفرض سلطانه على تلك النواحي ، وليس أدل على ذلك من إجباره من وقع في يده منهم على دفع الجزية التي على ما ذكر المقريزي لم تدفع لأحد من ولاة المسلمين قبله ، ولم يحدث أن طالب المسلمون بها .

كان ملوك البجة بحكم معاهداتهم مع المسلمين قد ضمنوا الطريق للمجتازين ، ولم يحدث أن اعتدوا على رجل سوى إبراهيم المخزومي . كما أنه كان للبجة وكيل منهم في أسوان كرهينة لدى السلطات الإسلامية في مصر لتأمين سلامة المسلمين في العمل في المعدن وفي جمع صدقات وزكاة من أسلم من البجة . وإزاء كل هذه الحقائق فإن ابن طولون لم يكن مطمئنا لوثبات العمري المتكررة سواء على النوبة أو البجة . وكان ابن طولون غير مطمئن على موقفه في مصر وهو الذي عاش في بغداد في بداية شبابه ، فقد عرف الكثير عن تواطؤ الأتراك ونفوذهم على الخلفاء العباسيين بعد مقتل الخليفة المتوكل ، وقدرتهم على تنصيبهم كخلفاء أو التخلص منهم . وكان كذلك ينظر بعيون حذرة إلى الولاة في دمشق خشية أن يرسلهم البلاط العباسي للخلاص منه . لهذه الأسباب فإن ابن طولون لم يكن مرتاحا لوجود مثل العمري في صعيد مصر . وكان على ما يبدو ينوي تصفيته إن عاجلا أو آجلا . وكانت المسألة مسألة الوقت المناسب والجيش المناسب الذي سيرسل إليه دون تعريض الجبهة الشمالية الشرقية من مصر إلى أي وهن يمكن أن

تنفذ منه القوات العباسية من الشام لزحزحته من مصر اذا ما رأى الخليفة العباسي ومن معه ذلك .

انتهز العمري فرصة مقتل أخيه إبراهيم المخزومي وجاء لقبيلة ربيعة التي كانت تسكن أراضي البجة ودعاها للانضمام إليه ومحاربة البجة . فلم يوافق رجال ربيعة على ذلك . وكانت ربيعة في هذه الفترة القصيرة قد أخذت تتزاوج في البجة منذ أن وطئت أقدامها البلاد سنة ٢٣٨هجرية . وقويت أواصرها مع زعماء البجة المعروفين بالحدارب وتصاهروا فيهم . وكانت قبائل البجة قبل إسلام من أسلم منهم قد ورثت عن أسلافها ما يشير إلى أن الطاعة واجبة عليهم لملكهم كنون بن عبد العزيز وقبيلة ربيعة معا . ولهذا فإن البجة قبلت نزول ربيعة في أراضيها كما قبلت مصاهرتها .

بهذه المصاهرة قويت البجة على النوبة من جهة ، وعلى القبائل العربية النازحة إلى مملكتها وخاصة أرض المعدن . كما أن ربيعة وجدت سندا قويا ضد من ناوأها من القبائل العربية وخاصة مضر التي كانت قد قبلت زعامة العمري عليها . فلما لم توافق ربيعة على الوقوف على الحياد بين العمري والبجة أو مؤازرته عليها دخل معها أيضا في قتال .

ومما يجدر ذكره أن الصلات القوية التي تمت بين ربيعة وزعماء البجة قد تعود إلى أيام سابقة ترجع إلى تلك الفترة التي كانت تسكن فيها قبيلة ربيعة جنبا إلى جنب مع قبيلة بلي جنوبي نجد . وقد عرف زعماء بلي الذين سيطروا على البجة باسم الحدارب ، وقد وصفهم المقريزي بأنهم " شوكة القوم ووجوههم " . وربما نظرا لذلك التاريخ المشترك أمكن لهاتين القبيلتين التحالف والمصاهرة أمام انتشار القبائل العربية الأخرى في أرض المعدن في السودان الشمالي الشرقي .

حاول العمري بشعاراته الدينية أن يؤلب المجموعات العربية في منطقة البجة الشمالية المتاخمة لأسوان على التحالف الربعي البجاوي الحديث العهد . وأخذ يستميل حلفاءه السابقين قبيلة مضر ، ولكنها لم تستجب له ، فلجأ إلى كل من جهينة وبني هلال طالبا منهم مؤازرته والوقوف معه ضد البجة وربيعة . ولكنهم امتنعوا عن مساندته ، وعبروا النيل غربا ابتعادا منه ، ورفضا الدخول في حلف معه . ورحلت بنو تميم من أرض المعدن واستقرت شرقي النيل وبذلك قطعت كل علاقة بينها وبينه ، ولم يبق معه في آخر الأمر الا جماعة من بني نمير .

وقد أنكر العمري على مضر وبني تميم وجهينة عدم غيرتهم على الدين وحماية المسلمين وامتناعهم عن مؤازرته ونظم في ذلك شعرا . وذكر أحد شعراء بني نمير في قصائده امتناع كل من بني هلال وقيس عيلان عن مساندته ، وانتهت هذه الخلافات بأن تآمر محمد بن هرون المضري [1] مع آخرين على اغتياله ، فاغتيل ، وحمل رأسه إلى أحمد بن طولون في مصر ، وبذلك انتهت محاولات العمري لبناء دولة عربية في مواقع مملكتي النوبة والبجة في السودان الشمالي الشرقي ، وتنفس كل من ابن طولون والنوبة والبجة وربيعة وسائر القبائل العربية الصعداء

---

[1] د. مصطفى مسعد – المكتبة السودانية . ص ٣٦٩